

ابن تيمية.. سؤال لماذا هُزمتنا وكيف نستعيد النصر المفقود

فقيه أصولي زود جماعات الإرهاب والتكفير بكل ذخيرتها الفكرية



كل التيارات الإرهابية تتفق على النهل من تراث ابن تيمية

المفتوحة، ولذلك يرفض الحرية الدينية إذ لا يجوز للاديان أن تكون فكريا فهي وحى من الله، مكفرا كل من يعتقد بأنه حر في ما يؤمن به أو يدين به. أكد الحافظ الفقيه نقي الدين السبكي أن ابن تيمية جاء ببدع لم تات بها أي من الملل والنحل ولا الطوائف الإسلامية، وقال في كتابه "الدرة المضية في الرد على ابن تيمية"، "أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد ونقض دعائم الإسلام والأركان بعد أن كان مستترا بتبعية الكتاب والسنة، مظهرا أنه داع إلى الحق هاد على الجنة فخرج من الاتباع إلى الابتداع".

ابن تيمية صاحب مشروع أسهم بشكل رئيسي في تحويل الإسلام إلى أيديولوجيا أغرقت الدين في أتون السياسة

فصل ابن تيمية بين مشروعين للأمة الإسلامية، أحدهما فرض على رموزه قيودا شديدة ولحقهم بالتكفير واستحل دماغم ونزع عنهم صفة امتثالهم لهذا الدين، رغم أنهم هم من أسسوا قواعد العلوم النظرية والطبيعية في الحضارة الإسلامية وكان لإبداعاتهم دور في نهوض الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى. في مقابل مشروع الإسلام السياسي الذي كان له الفضل في وضع لبناته الأولى موصلا لتكفير المخالف ومستحلا دماء المفكرين والفلاسفة على مجرد الشبهة وتبني سردياته التي تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة للدين والدنيا على احتكار الإسلام ونسبته لجماعة دينية أو مؤسسة رسمية أو حقبة تاريخية.

ضيق مشروع ابن تيمية الفكري الذي يفيض بتكفير الناس والعداء للمجتمعات خيارات أبناء الحضارة الإسلامية وكرس الجمود والانحطاط الحضاري وقتل الإبداع والتجديد وجلب التشدد والنزاع على السلطة وأنشأ الذميمة والطائفية.

أسوأ آثار مناهج ابن تيمية التكفيرية علاوة على إمداد التكفير الديني والعنف الميليشياوي بذخيرته الفقهية، حجب تراث المسلمين النهضوي الذي سبب نهضة أوروبا، وهو تراث الحكمة والفلسفة والفكر والعلوم والقيم والفنون.

ردة فعل جماعات الإسلام السياسي بعد سقوط السلطنة العثمانية وهزيمة يونيو 1976، حيث أضع هذا التيار على العرب والمسلمين فرص توظيف مدارس فكرية عقلانية، كان من الممكن لها أن تسهم في تغيير زاوية الفهم للدين والواقع، وأن تسهم في بناء نهضة إسلامية حقيقية. التوسع في التكفير والإقصاء شمل غالبية مفكري وفلاسفة النهضة حديثا، وجرى تجاوز إنتاج رموز الإصلاح الديني، وفي مقدمتهم الإمام محمد عبده مقابل التمكين لمدارس سلفية أصولية.

شمل التكفير في الماضي فضل آراء ابن تيمية الإقصائية علماء مثل الطبيب ابن سينا والكندي وابن رشد والرازي والبيروني وجابر ابن حيان والفارابي وابن النفيس والخوارزمي، وابن الهيثم والسهوردي. رفض ابن تيمية جميع العلوم العقلية باعتبارها اتجاهات خطيرة على الفكر والعقيدة، فالعلم الحقيقي في نظره هو العلم الشرعي فقط وما عداه ليس له نفع يعود على الدين وأهله، متهمها فلاسفة ومفكري النهضة بأنهم أفسدوا على الناس عقولهم وأديانهم، وهم في نظره إما زنادقة أو ملاحدة أو مبتدعة تطعن آراؤهم في الإسلام، ما حرم المسلمين من منجزاتهم العلمية والفكرية.

الفقيه الأصولي ابن تيمية ليس مجرد مفكر غدت تنظيراته مسارات التكفير والعنف المسلح ليسهل على البعض تبرئة تراثه بحجة سوء فهم مشروع أسهم بشكل رئيسي في تحويل الإسلام إلى أيديولوجيا أغرقت الدين في أتون السياسة وحولت رسالته الأخلاقية إلى سلطة دينوية تغلب عليها الاستبداد والهيمنة. وأوجد بدبلا للنهضة العلمية عبر دراسة العلوم الشرعية التي من خلالها تتحقق الفتوحات الإسلامية، فالحضارة الإسلامية لا تقاس بعمران الدنيا ولا بعلومها بل بنشر الدين الإسلامي في البلاد.

أفكار وبنادق

توسع ابن تيمية في تكفير المخالفين في تفاصيل العقيدة، مطورا منهج أبو الفرج الشيرازي الذي كان أول من دشّن طريقة بمنحن فيها عقائد الناس، موثقا أسلوبه الغريب في كتاب عنوانه "جزء فيه امتحان السني من البديعي". لم تختلف ردة الفعل العاطفية على سقوط حضارة الخلافة وبدء خفوت بريق الأمة وتنازع هجمات المغول قديما عن

تيمية، جرى حجب وتهميش مدارس فكرية وفلسفية في التراث الإسلامي تبرز بين النص والعقل رغم تراثها الحضاري الإنساني بإراء سياسية وفلسفية وأبحاث علمية حول الكون والبشر في شتى التخصصات. عكس تصعيد اسم ابن تيمية والإحاح على تصدره المشهد الفكري الرغبة في رواج مشروع إقصائي ممرق لوحدة الأمة بشرح لمفاهيم الفرقة الناجية ودار الحرب ودار الإسلام وتكفير المخالف.

بدد الرجل طاقات الأمة عبر إدخالها صراعات مدمرة للدول والمجتمعات، ولأغيا فاعلية الإنسان وقوانين الطبيعة عبر رد الظواهر إلى مبدأ واحد تسلمهمه الألاف من العقول الانتبعية والانتكالية من حاكمية إلهية سالبية. أدى التركيز على اسم وإنتاج ابن تيمية إلى غرض الطرف عن تراث تيارات فكرية وعلماء ومفكرين وفلاسفة كان لهم الدور الأكبر في بناء الحضارة العربية والإسلامية وبزوغ نجمها عالميا. ما يعني أن الاختزال والانتقائية بغرض التمكين لدراسة واحدة من مدارس التراث كانا مقصودين لاستبعاد مدارس أخرى أنتجت من خلال فلاسفة ومفكرين وعلماء مسلمين كبار أسسوا قواعد يمكن أن تبني عليها نهضة الأمة. أطلق مشروع تيار الإسلام السياسي الطموح من رحم هزيمة 1967 في سياق خديعة إسلاموية كبرى استمرت لعقود اكتسح بفضلها هذا التيار الساحة وأصل ما عليه الآن من انتشار وتمدد، عندما عزى الهزيمة للبعد عن الدين.

لجأ ابن تيمية إلى الحيلة ذاتها قبل قرون مستغلا سقوط بغداد على يد التتار عام 1258م، ومؤسسا لنفسه مشروعا عبر تربية جيل تزلزل وجدانه بسبب الهزيمة المدوية، قبل أن يجد الإجابة على سؤال لماذا هُزمتنا لدى رجل يقول إن ما يعتقده الناس ليس هو صحيح الإسلام ويزعم أنه يملك مفاتيح الحق دون غيره. ترتب على هذا الجواب حل كارثي في زمن ابن تيمية وفي زمننا، وكي بنيت الرجل أنه يمتلك المشروع الذي لم يسبقه به غيره ليكون نقطة البداية لاستعادة النصر المفقود اختار البدء بتمحيص عقيدة المسلمين ليستحقوا النصر لله.

توسيع ابن تيمية في تكفير المخالفين في تفاصيل العقيدة، مطورا منهج أبو الفرج الشيرازي الذي كان أول من دشّن طريقة بمنحن فيها عقائد الناس، موثقا أسلوبه الغريب في كتاب عنوانه "جزء فيه امتحان السني من البديعي". لم تختلف ردة الفعل العاطفية على سقوط حضارة الخلافة وبدء خفوت بريق الأمة وتنازع هجمات المغول قديما عن

التنظيمات المتطرفة التي بالكاد ترى موقعها من السلطة، حيث تنوخي هذه المدرسة تكريس إسلام واحد لا يتأثر بحركة التاريخ ولا باختلاف المجتمعات. العنوان الطائفي لشخصية الفقيه ابن تيمية هو استغلال أحد العقول الإسلامية الطموحة المتقدة نداء وحماسة وأكثرها غزارة في التأليف من بوابة جوانبه الإيجابية وحميته وغيرته على الأمة مشاركا في الدفاع عنها وجهاد أعدائها، ما يخلق شرعية مزيفة لفتاوى العنف والكرهية والجهاد المسلط على رقاب المسلمين بأيدي جماعات تعاني تهافت حججه ومواقفها السياسية والفكرية إثر رفض جموع فقهاء المسلمين قديما وحديثا لأطروحاتها وأفكارها.

ترتبط التفاصيل والمضامين الغاطسة بالمشروع المراد للأمة أن تنتبها وهو الجانب الأهم والأخطر، ما يتضح من السياق المضاد بالتراث الإسلامي الذي جرى تعمد تخييبه وهو نموذج المصلحين التقديين الذين تنوعت مدارسهم الدينية والفكرية والفلسفية. مقابل الدفع باتجاه سلفي أصولي متشدد يركز على فرض العقائد بقوة السلطة واختيار عقائد الناس والحكم على ضمايرهم ومؤيدي الفرقة والتحزب والتفرق الطائفي مقرونا باسم ابن

المسلمين القادم من القاهرة. حاول رعاة هذا التيار تحصين المنظومة الفكرية والفقهية التي فرخت العنف والإرهاب عبر العصور دون أن يمسسها تجديد أو يبطال أصولها وقواعدها أي تطوير عبر نسبتها لرجل جاهد وقاوم الأعداء على الساحتين الشامية والمصرية، وكان بمثابة الجهاز الإعلامي الذي شخّذ مشاعر جيش المسلمين القادم من القاهرة.

بين مصر والشام

يعود الأمر لحالة نشطت بين الشام ومصر، وهي المجال الذي أريد فيه تعميم الإسلام السياسي حديثا كانعكاس للأفكار السلفية المتحجرة قديما، وكانت مشاركة ابن تيمية في الجيش المصري والسوري ضد التتار وحلفائهم هي وسيلة للاختراق بالفكر النقلي الأصولي، بالنظر لتمثل شعوب هذه المناطق من الخطاب المتشدد، وميل المجتمعين المصري والشامي للفتوة الصوفي ونفورهما من الأفكار السلفية التي تنسب بعض أصولها للإمام أحمد بن حنبل.

قصة توظيف الفقيه الأصولي ابن تيمية أوسع من مجرد استدعاء فتاواه لدعم مواقف التشدد والعنف التي تنتبها الجماعات التكفيرية وجماعات الإسلام السياسي على امتداد خارطة العنف العالمي، فهي تشمل استغلال رمزيته في خلق شرعية لتيار فكري يحدد برنامج الأمة الحاضر عبر العودة إلى التراث بمفهومه الديني الضيق كمعيار أساسي لتقييم الحاضر والتطلع إلى المستقبل، ولا يختلف قديم هذا الاتجاه عن جديده، فكلاهما يجعل من المستقبل صورة ذهنية للماضي المتخيل. الاختبارات المتشدة في التنظيم والممارسة وراعاها مدرسة فكرية تطبقه لأغراض ربما لا تعيها

أصولي تكرر كثيرا في

استحضار اسم الفقيه الأصولي أحمد ابن تيمية في المسلسل المصري "الاختيار" كمرجعية للسلفية الجهادية في أحد المشاهد التي يستدل بها أحد التكفيريين بأقواله، وقبل بجدل واسع بين الجمهور المصري الذي صدمته مشاهد لاحقة تدافع عنه وتبرئه من المسؤولية عن نشر الأفكار المتطرفة.

الماضي والحاضر المعاصر، إنما في من يوظف هذه النماذج ويعتني بإحيائها ويسعى في أن تكون مرجعية عامة للأمة، وهو يدرك جيدا مآلات هذا الإحياء من تكريس للجمود الفكري وللنزاعات الأيديولوجية والطائفية عبر حالة تم استخدامها في زمانها واستدعائها الآن لنفس الهدف، وهو محاولة فرض عقيدة سياسية النشأة والغاية، وتعميم مذهب فقهي يمثل أقلية الأقلية بين المسلمين منذ ظهوره.

وقع مسلسل "الاختيار" على ابن تيمية بعناية لافتة، فقد كان صوته حاضرا أكثر من أي رجل دين آخر في المشهد السياسي والعسكري، وصاغ خطابا دينيا أقتنع به أهل عصره للتعامل مع غزو التتار المسلمين، وهي الصياغات الفقهية التي خدمت مدارس السلفية الجهادية المعاصرة عبر استدعائها منسوبة لرجل مشهور بالجهاد والنضال بغرض توظيفها ضد الحكام المعاصرين بشكل يظهرهم أمام أتباعهم كما لو كانوا يصحون بخطاب ابن تيمية المقاوم ضد المعتدي والطاغوت، حتى لو كان مسلما.

جرى استغلال جانب شخصية ابن تيمية كرجل دبلوماسي وسياسة وحرب شارك في المقاومة الشامية وفي صفوف الجيش المصري في معركة شقشيق (مرج الصفر) في رمضان 702 هجرية (أبريل 1303م) ضد التتار وحلفائهم من الطوائف الإسلامية والديانات الأخرى، بغرض تعريب الاتجاه السلفي المنغلقي الذي تبناه.

حاول رعاة هذا التيار تحصين المنظومة الفكرية والفقهية التي فرخت العنف والإرهاب عبر العصور دون أن يمسسها تجديد أو يبطال أصولها وقواعدها أي تطوير عبر نسبتها لرجل جاهد وقاوم الأعداء على الساحتين الشامية والمصرية، وكان بمثابة الجهاز الإعلامي الذي شخّذ مشاعر جيش المسلمين القادم من القاهرة.

يعد الأهم لحالة نشطت بين الشام ومصر، وهي المجال الذي أريد فيه تعميم الإسلام السياسي حديثا كانعكاس للأفكار السلفية المتحجرة قديما، وكانت مشاركة ابن تيمية في الجيش المصري والسوري ضد التتار وحلفائهم هي وسيلة للاختراق بالفكر النقلي الأصولي، بالنظر لتمثل شعوب هذه المناطق من الخطاب المتشدد، وميل المجتمعين المصري والشامي للفتوة الصوفي ونفورهما من الأفكار السلفية التي تنسب بعض أصولها للإمام أحمد بن حنبل.

قصة توظيف الفقيه الأصولي ابن تيمية أوسع من مجرد استدعاء فتاواه لدعم مواقف التشدد والعنف التي تنتبها الجماعات التكفيرية وجماعات الإسلام السياسي على امتداد خارطة العنف العالمي، فهي تشمل استغلال رمزيته في خلق شرعية لتيار فكري يحدد برنامج الأمة الحاضر عبر العودة إلى التراث بمفهومه الديني الضيق كمعيار أساسي لتقييم الحاضر والتطلع إلى المستقبل، ولا يختلف قديم هذا الاتجاه عن جديده، فكلاهما يجعل من المستقبل صورة ذهنية للماضي المتخيل. الاختبارات المتشدة في التنظيم والممارسة وراعاها مدرسة فكرية تطبقه لأغراض ربما لا تعيها

أصولي تكرر كثيرا في

هشام النجار
كاتب مصري

يرجع حرص صناع المسلسل الذي يناقش قضايا الإرهاب ومغذياته الفكرية على الإشارة إلى ابن تيمية للدور المحوري الذي لعبه داخل مرجعيات السلفية الجهادية، والإسهام من خلال منظرتين معاصرتين في تأسيس وبلورة الصيغة النهائية للفكر الذي تعمل به جماعات الإرهاب الديني، مثل الإخوان وداش والقاعدة والنصرة ويوكو حرام والشباب الصومالية وغيرها.

يبدو استدعاء ابن تيمية من خلال مشاهد عابرة يدافع في أحدها شيخ أزهرى عنه ويصفه بـ"الإمام المجاهد" في مسلسل يتابعه الملايين، مغامرة غير محسوبة قد تترك آثارا سلبية على جهود تحجيف رواد الفكر المتطرف.

ذلك لأن ابن تيمية الحرائي، ليس مجرد رجل ولد في القرن السابع الهجري (الثاني عشر الميلادي) اندثرت سيرته أو خف أثره، بل صار من واقع استشهادات منظري كل جماعات العنف التكفيري بفتاواه مرجعية رئيسية لهذا الفكر الذي تم استدعاؤه لصدا في سياقات مريبة كمشروع أريد به كبح المسار التنويري. الدفاع عن ابن تيمية عبر حوار سطحي غير معمق من شأنه إلحاق الضرر بجهود التجديد التي تحتاج لمعالجات أكثر عمقا وتفصيلا لحقائق تاريخية غائبة تخص تاريخ العرب والدولة المصرية وتاريخ الإسلام عموما.

يحتاج الجمهور العربي للتعرف على وجه آخر مخيب من مفكري وفلاسفة التراث الإسلامي لا غنى عن إبرازهم ونشر إنتاجهم النهضوي كتنقيص لتيار الانحطاط والرجعية، ما يعني أن الطرح الموضوعي الجاد يتحقق بإظهار نقاط التجديد والقوة والأزدهار مقابل جوانب الضعف وعوامل الجمود بالتراتب الديني الإسلامي. ابن تيمية ليس هو النموذج المثالي لتقدمه من أجل معركة الوعي والنهضة على مستوى الدين والدولة، فبهذه مهمة معقدة لا يهضض بها مفكر مهما كانت درجة كذاهه وسعة أطروحاته يعتمد على معارف نظرية مجردة، شأنه شأن أحد أقطاب السلفية المعاصرين من ذوي القدرة على التلقين والحفظ وعرض المسائل واسترجاع النصوص والشواهد وإبهار السامعين بقوة الفصاحة.

استحضار ماضوي

جرى استنساخ نموذج ابن تيمية كثيرا وضجت بأمثاله الفضائيات العربية تجسيدا للمنظر الفكري الأقرب للأسطورة في وفرة المؤلفات ولعقلية الداعية صاحب الرؤية التي لا ينبغي نكدها فيما يجب على الأمة عمله لاستعادة أمجادها.

ظهرت الكثير من نسخ ابن تيمية خلال هذا القرن والذي سبقه، عبر دعاة وقادة جماعات برعوا في الجدل وشديدي الحماسة مشيويي العاطفة وسريعي الانفعال، مؤمنين بمبادئهم إلى حد اليقين، فما أسهموا بإبداع يعتد به في مسيرة نهضة العرب والمسلمين، كتنان ابن تيمية في عصره خاصة وأن معاصريه اتهموه بالزندقة بعد انتهاء دوره الإيجابي في المعركة ضد التتار.

لم تكن المشكلة في ابن تيمية كتشخص وفقيه أصولي تكرر كثيرا في

